

الجزء الأول

زوجتا سفيرين
وجسران للتعرف

obeikandi.com

الرسالة الأولى

آلاف الأكواب من الشاي

أصدقائي وأهلي الأعزاء،

في يوم من الأيام قال لي صديقي الشاعر المؤرخ القيصري محسن إلياس صوباشي: أنت تذكّرني بالسيدة مونتاچيو من عدة نواح، وأعتقد أنك إذا كتبت كل الأشياء التي رأيتها هنا طوال الثلاثين عامًا الماضية سيكون ذلك ذا أهمية كبيرة عند الأترك بل عند سائر العالم أيضًا؛ فجميعهم سيكون شغوفًا أن يرى تركيا بعيون أجنبيّ تردّد إليها كثيرًا.

في البداية اعتقدت أنه اقتراح مستحيل؛ لأنني لم أكن أتخيل أن تجاربي في تركيا قد تهّم أي شخص غيري، غير أنني كلما فكرت فيما قال اقتنعت أنه ربما يكون على حق، وأني أحتاج لأن أكتب بعض تجاربي التي مررت بها أثناء سفري؛ ومن خلال ذلك ربما أستطيع أن أفسر سبب استمرارني في الذهاب إلى هناك طوال كل تلك السنوات...

وهكذا قررت أن أبدأ مراسلة خيالية مع السيدة ماري العظيمة نفسها، وأكتب انطباعاتي وتأملاتي الشخصية في رسائل موجهة إليها كما لو أنني أحدثّ معلوماتها عن البلد الذي وقعت في غرامه.

ورغم أن الرسائل التالية موجهة إليها فهي موجهة إليكم أيضًا -أصدقائي وأهلي- ولأي شخص آخر قد يهتم بقراءتها، وللشعب التركي أيضًا.

إنني لا أكتب دليلًا للسائحين المتجهين إلى تركيا؛ لذا فهذه الرسائل ستكون مختلفة تمامًا عن معظم الكتابات الأخرى التي كتبها زوّار تركيا عبر

القرون الأربعة الماضية، وخاصة تلك التي كتبت في العقدين الأخيرين.

هذه الرسائل لن تكون سجلاً يوميًا للرحلة؛ لأن الرحلة غالبًا ما يغامرون بالذهاب إلى أماكن غير مألوفة، ولكن الأماكن في تركيا مألوفة لي بطريقة ما، وأيضًا فأنا لا أريد أن يُصاب القارئ بالملل بسرد قصص الرحلات التي تتناول أشياء سخيفة تافهة تتعلق بالسفر مثل غثيان معدتي، أو الطائرات والحافلات التي فاتتني، أو ما فقدته من مال أو متاع؛ لن تجدوا هنا قصص المستكشف الشغوف التي تجدونها في كتابات ريتشارد بيرتون، وألكساندرا دافيد نيل، وفريد برنابي.

ولا أودّ أيضًا أن أكتب دليلًا يصف المشاهد الخلابة التي يسهل العثور عليها في كتب رحلات كثيرة مطبوعة حاليًا أو موجودة على الإنترنت، لن تكون تلك الرسائل بمنزلة كتاب تمهيدي عن تركيا يقدم حقائق وتفصيلات تاريخية يسهل العثور عليها في أي دليل جادّ؛ إن قرائي لا يحتاجون إلى معرفة كل ما فعله أتاتورك، ولا إلى قصص الحریم، ولا تقاليد الحمامات، ولا ما فعله الحيشيون في مستوطنة تشاتالهوريوك.

ولن تكون هذه الرسائل أيضًا دراسة مجتمعية عن الأنماط الحياتية التركية؛ فتركيا تتغير على نحو مطرد، فالإحاطة بها أمرٌ مستحيل، ولن تكون الرسائل تحليلًا سياسيًا أيضًا.

نعم، أنا لا أستطيع أن أغض النظر عن السلبيات أو أن أخفي المشكلات، لكن لا يمكنني أن أدعي -وأنا أجنبية- أنني أستطيع إزالة الغموض عن هذه البلاد المليئة بالتباينات والمتناقضات، سوف أترك هذه المهمة لعلماء الاجتماع والسياسيين.

ولا أودّ ألبتة أن تغدو هذه الرسائل مذكرات لي أو سيرة ذاتية؛ فحياتي ليست جذابة لهذا الحد، وقصص رحلاتي لا تحمل الكثير من المغامرات المثيرة؛ ولذلك لا ينبغي لي أن أطلق العنان لنفسي فيصيبكم الممل.

وأهمّ من ذلك أنني لا أريد أن أنهككم أو أسخر من الأتراك؛ فلطالما كانت وجهة النظر الغربية ضدهم وبشكل غير لائق أحياناً؛ وقد تبادل كتاب مشهورون مثل لامارتين، ونرفال، وجيد، ولوتي، وجوتيه، وتوين، وستارك، وبارنبي، وغيرهم الأدوار في وصف عادات الأتراك؛ ما أخذه على هؤلاء الكتاب الرحالة بشكل رئيس -لا سيما رحالة القرن التاسع عشر العظماء الذين عبروا "الشرق الساحر"، وسردوا قصصهم البطولية المبالغ فيها حول الصعوبات التي تغلبوا عليها- هو أنهم يبدون لئاماً مستكبرين؛ يزدرون الموضوع الذي يتناولونه بشكل صريح.

لا أرغب في سرد قصص مطولة ومملة تفضي بالقارئ إلى طريق ملتوية كي أصل إلى السخرية من مدى غرابة العادات والتقاليد في هذا البلد، ولا أرغب أيضاً في المساس بالكبرياء التركي من خلال قص حكايات استهزائية أو فكاامية، أريد فقط أن تشاركوني بعض القصص التي حدثت معي، وماذا تعني بالنسبة لي، فلسوف تتضمن هذه الرسائل تجارب شخصية حرّت في تفسير بعضها.

تعلمت من سنوات سفري ومن حياتي المهنية بكاملها في مجال العلاقات بين الثقافات المختلفة الكثير والكثير، لكن أكبر درس تعلمته هو أنه ينبغي على المرء أن يخطو بحرص شديد عندما يتكلم عن بلد أجنبي وشعب أجنبي، وتعلمت أن وجهة نظرك حول العالم غالباً ما تكون متأثرة بالتصورات التي تحملها داخلك، والتي ورثتها من بلدك الأم ومن نشأتك.

عندما تكون بصدد موقف غير قابل للتفسير ينبغي أن تأخذ نفساً عميقاً، وترجع إلى الورا، ثم تنزع نظارتك الغربية المهيمنة، عندها ستمكن من البدء في تحديد ما هو لهم، وما هو لك، وما هي الحقيقة.

لا شك أنك عندما تفتح عينيك لتدرك قيمة شعوب أخرى وبلاد أخرى ومجتمعات أخرى تختلف عن بلدك وشعبك ومجتمعك فإن ذلك

أمر لا يقدر بثمن، ولا يوجد بلد آخر في العالم يجعل هذه التجربة أرق وأكثر نبضًا بالحياة من تركيا.

أنا أطوّف في تركيا وأتعامل مع شعبها منذ وقت طويل، وقد نما فيّ حبّ هذا البلد وثقافته بقدر حبي لوطني وثقافتي أو بقدر حبي لفرنسا وطني الآخر بالتبني.

أعرف أنكم جميعا لا تفهمون كيف أكنّ تلك المشاعر القوية تجاه البلد الذي ظهر بصورة سيئة في فيلم "محاولة الهروب" وتجاه هؤلاء "الأتراك البغيضين"، ما أريده منكم هو أن تعطوا تركيا فرصة، فهذه الرسائل هي محاولة مني بأسلوبي البسيط لترسيخ تفاهم أكبر بين تركيا وسائر العالم؛ وعليه فأمل أن يكون في هذا العمل ردٌّ على أسئلتكم إذا ما سألتُموني جميعًا: لماذا أسافر إلى تركيا عامًا بعد عام، وأذهب مرة أخرى للأماكن المُغبرة نفسها بدلًا من استكشاف أركان العالم الأربعة كما فعل فيلياس فوج^(١)؟

غير أنني كما قلت من قبل لا أوجه هذه الرسائل لأهلي وأصدقائي والقراء الآخرين فحسب بل هي للشعب التركي أيضًا، وأتمنى أن تمثل رسائلي رسالة شكر طويلة وبسيطة لتركيا وشعبها، وتعبيرًا بسيطًا عن تقديري وحبّي لهذا البلد ومواطنيه.

هذه الرسائل هي طريقي لردّ الجميل، وردًا على آلاف الأكواب من الشاي التي قُدمت إليّ خلال السنوات الثلاثين الماضية، فيا لها من كمية كبيرة من الشاي، حقًا حقًا، وأقول لهم: نعم، أريد كوبًا آخر من الشاي.

مع تقديري

كاثرين

(١) بطل فيلم «حول العالم في ٨٠ يومًا» (المترجم).

الرسالة الثانية

قله توازن وإدراك

عزيزتي السيدة ماري،

أمل ألا تنظري إلى هذه الرسالة على أنها تطفل مني، وأن تغفري لي تبجحي في الإقدام على الكتابة إليك؛ فقد شجعتني رغبتني في التعبير عن إعجابي بأسلوبك في الكتابة على مخاطبتك بشكل مباشر، وأودّ أيضاً التعبير عن الصلة التي شعرت أنها تربطنا بعد قراءتي للرسائل التي كتبته إلى وطنك أثناء فترة إقامتك في تركيا من عام ١٧١٦م حتى عام ١٧١٨م.

أرجو أن تسمح لي بأن أقدم لك نفسي: اسمي كاثرين براننج، امرأة أمريكية وأمينة مكتبة، أشارك معك في عدة أشياء فمثلاً: كل منا تركت وطنها في سن صغيرة لتعيش في بلد أجنبي، كما أن كلتينا اخترت أن تغترب عن وطنها عدة سنوات من حياتها، أنا متزوجة أيضاً، وكلتانا تؤمن بأهمية التعليم، والأهم من هذا كله أننا نشارك تركيا، فقد قضيت وقتاً طويلاً في السفر داخل تركيا خلال العقود الثلاثة الماضية.

أنا كاتبة رسائل مثلك، أسعد أيما سعادة بكتابتها، وأحب أن أرى الصفحة وهي تمتلئ بالسطور مثلما يمتلئ حوض الاستحمام بالمياه الدافئة، وأن أشعر بالتوتر قليلاً بينما يتحرك رأس القلم على الورقة، وأن أختار أدواتي في كتابة الرسائل بعناية: أفخر أنواع الورق الكثيف أو البطاقات الملونة، وقلم رشيق التصميم جيد الصنع يتوازن بشكل تام في يدي، وطوابع بريد مختارة بدقة مليئة بالألوان والإشارات التاريخية أو القضايا التي أفضّلها.

كتابة الرسائل تحمل قدرًا كبيرًا من الأمل والإثارة، حتى إنني أشعر وأنا أكتب أنني أعمل بنفس الحب الذي أعمل به وأنا أطهو وجبة متميزة لأحبائي، وأتخيل سلسلة الأشخاص الذين ستمرّ بهم الرسالة وهي في الطريق، والسعادة على وجه صديقي عندما يرى الرسالة في صندوق بريده، وفضوله وهو يحل شفرة الطوابع، وحماسه وهو يلتقط مفتاح الرسائل ويفض الطرف، ثم فرحته عند قراءته لما أودّ أن أقوله له، ولكن فوق ذلك كله أعتقد أن أكثر ما أتلذذ به هو الحميمية التي تقدّمها كتابة الرسائل بين شخصين، وحالة الشخص وهو يتقدم أو يتأخر كما يحبّ عند تعبيره عن عاطفة ما لديه؛ وأقدّر كيف يستطيع المرء أن يخفي الأفكار السرية خلف الكلمات، وكيف يستطيع أيضًا أن يخطو للأمام مع تلك الأفكار نحو دائرة الضوء.

لا شيء يمكن أن يحلّ محلّ الحميمية التي تسمح بها سطور الرسالة، وأنت يا سيدة ماري قد حظيت بذلك القدر دون شك... بين القسطنطينية وإنجلترا، وبين حياتك الجديدة الغامضة وحياتك المألوفة التي تركتها وراءك.

وعلى الجانب الآخر، تقدّم كتابة الرسائل قدرًا كبيرًا من الحرية والصراحة والطاقة؛ فكتابة رسالة ذات لهجة لاذعة تمكنني من تبديد الحزن الذي يصيبني في كثير من الأحيان.

لقد كتبتِ خمسًا وعشرين رسالة من تركيا خلال السنة التي قضيتها هناك، وهو عدد غير قليل؛ بالنظر لأنك كنت مشغولة بأمر منزلك الجديد، وبطفلك الصغير الذي يبلغ من العمر أربع سنوات، وبالاستعداد لولادة طفلك الثاني، ومنذ أن كتبتِ هذا العدد من الرسائل نجحت في أسر خيال عدد لا يحصى من القراء والفنانين، وخاصة خيالي أنا باعتباري رحالة كاتبة.

وبمرور الوقت اكتسبت مكانة مرموقة بصفتك واحدة من أبرز كتاب الرسائل باللغة الإنجليزية؛ فقد وصل إلينا نحو تسعمائة رسالة مطبوعة من رسائلك منذ أن كتبتها، أما تلك الرسائل التي كتبتها في تركيا ونشرت بعد وفاتك فلا تزال تُقرأ إلى اليوم، وتمثل منجمًا للاقتباس بالنسبة لكثير من كتاب الرحلات، كما تقدم الكثير والكثير من المادة الأولية للبحوث الأكاديمية عند دعاة الحداثة والمستشرقين ودعاة المساواة بين الجنسين.

لدي صديق تركي، وهو كاتب أيضًا، يقول: إنني أذكره بك، ويا له من إطراء! لا أعتقد أنه يعني أنني أمتلك نفس مواهبك وذكاكك، بل أعتقد أنه يقصد أنني أحاول أن يكون لدي نفس النظرة المتفتحة المحايدة تجاه ما حولي كما فعلتِ أنت، وهذا ما يجعل أسلوبك في كتابة الرسائل على هذا القدر من التميز في رأيي؛ فهذا التميز لا يرجع إلى ما تعرضين من نظرات ثابتة في التاريخ والحياة اليومية خلال تلك الحقبة، بل إلى إدخالك عنصري السهولة والاتزان في موقف شخص غريب يعيش ثقافة مختلفة.

أنا معجبة بكيفية نقلك للأحداث والحقائق بشكل صريح وصادق، لا بشكل سلبي أو نقدي؛ فقد كنت سائحة لديها القدرة على الاعتراف بالجميل والتقدير، وتصرفت دائمًا كما لو كنت ضيفة في بيت أحدهم؛ فلم تكن نبرتك أبدًا نبرة الموبخ القاسي الذي يحتقر الأتراك وكأنه يمتاز عنهم أخلاقيًا، وأعطيت لنفسك حرية الشك في التركيبة المجتمعية الخاصة

بمجتمعك أنت، لا في تركيبة المجتمع التركي، ولم تصدري أبداً أحكاماً متحيزة ضدهم، وفهمت المعنى الحقيقي للتبادل الثقافي، وخاصة في مناقشاتك مع معلمك ”السيد أحمد“، وبحثت عن التناقضات بين أوروبا الغربية وتركيا، وكذا التناقضات داخل أوروبا وداخل تركيا.

أنا أستمتع بتخيل شخصية المرأة التي أراها وراء تلك الكلمات؛ لقد سعت بفضول وشغف تتعلمين كل ما تستطيعين تعلمه عن الحياة اليومية بدءاً من الدين إلى المواقف والأطعمة، وغمست نفسك في عالمك الجديد، ولم تعطي الفرصة لأي شيء ليعيقك عن استكشافه.

أشعر أنك امرأة ذكية ذات روح مبهجة، يكون تألق ذكائها وسحرها في قمته دائماً عند نهايات رسائلها المتفائلة، وتقدم رسائلك إشارات بأنك تستطيعين أن تكوني ذات إرادة قوية وقلب طيب أيضاً تبعاً للموقف.

ما أروع الرسائل التي كتبتها لوطنك من تركيا يا سيدة ماري! وما يدهشني دائماً أن الكثير والكثير من المسافرين إلى تركيا عبر القرون المختلفة تقابلهم نفس القضايا ويتعرضون لحوادث سوء التفاهم والإحباطات نفسها؛ يبدو أن الجميع يفاجأ بنفس الأشياء سواء كانوا من العسكريين المغامرين في القرن التاسع عشر، أو من دعاة الحداثة في أواخر القرن العشرين؛ بعض الأشياء لا تتغير أبداً، وبعض الصراعات لا تجد حلاً أبداً؛ فالكثير من الأسئلة لا تزال دون إجابة.

عندما أنظر إلى تجاربي وأرى مدى محاكاتها لتجاربك، أشعر بأن هناك ارتباطاً بيني وبينك؛ كنت عازمة على تحقيق أفضل ما يمكن تحقيقه في كل موقف، والاستمتاع بالحياة، والحصول على كل ما تستطيعين من كل ما يصادفك.

أحاول أن أتخيل كيف كان رد فعلك تجاه الحوادث اليومية، وكيف تعاملت مع سوء التفاهم والارتباك المتكررين مراراً بينما كنت تحتفظين بذهن صافٍ لا يصدر أحكاماً؛ حقاً إن ذلك كان منك بيسر ونبيل دون تكلف أو شكوى على الإطلاق، ولطالما أعجبت بهذا فيك.

لقد حاولت أن أتبنى نفس أسلوبك المتفتح في عملي ورحلاتي، ولكن بصفتي غريبة أيضاً يستحيل عليّ أن أرى أي شيء بوضوح؛ فالغريبة ترغب أن تكون كالمواطنة، ويغلب عليها احتمال التحيز والإمبريالية.

وفي النهاية، أحاول عندما أسافر أن أطبق نفس الاستراتيجية التي ترشدني في مهنتي بصفتي أمينة مكتبة: أجمع المعلومات، ثم أنظّمها، ثم أنشرها، ولا أحاول تفسيرها أو تعديلها، بل أنشرها فقط، أو هذا ما أحاوله، كما قلت أنت في رسالتك من راتيسبون: ”من الحكمة أن يبقى المرء محايداً“ أو كما قلت من فيينا: ”الكياسة والنشأة الجيدة تختلفان في الأجواء المختلفة، تماماً مثلما تختلف الأخلاق والدين؛ ولن نعرف من على الصواب حتى يوم الحساب“.

أنا متأكدة أنك تومئين برأسك وتبتسمين بسبب كثير من تعليقاتي التي شعرت بها قبلي منذ (٢٩٠) سنة، ولكن ليحيي هذا التواصل، وهذا البحث الأبدي المستمر عن التفاهم، وهذه المقارنة، وهذا التحدي؛ ففي ثقافات العالم الكثير لتشاركه وتكتسبه بعضها من بعض، وفي النهاية ربما نستطيع أن نتعلم كيف نشارك بشكل أمثل في حركة الإنسانية الحرّة نحو مجتمع يسوده التفاهم والاحترام والسلام، قد يبدأ كل ذلك بكتابة رسالة، أليس كذلك؟

إذاً هل تسمحين لي بمكاتبتك؟ سوف أسعد كثيراً بأن أشاركك انطباعاتي الخاصة عن بلد كلتانا تعشقه؛ أتمنى أن تستمتعي بمعرفة التفاصيل عن تركيا في أواخر القرن العشرين، وسوف تطمئنين أن الكثير

والكثير من القيم والمعالم التي أعجبت بها كثيراً سائدة في هذا البلد ولا تزال كما هي، ولسوف تسعدين أيضاً برؤية تطور ونمو هذا البلد وشعبه، أشخاص مثلك ربما أسهموا في تدعيم هذا النمو من خلال توضيحهم للأتراك بأن الغرب والغربيين يمتلكون من الكرم والطيبة ما يمتلكون.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين براننج

الرسالة الثالثة

في العالم مكان يسمى سيواس

عزيزتي السيدة ماري،

آه يا سيدتي! لم تكوني في يوم من الأيام مضطرة للتعامل مع أي سؤال بالغ الصعوبة في رسائلك، ولا عليك سوى أن تشاركي بانطباعاتك عن هذا البلد الذي كنت تزورينه، وما أروع ما قدمت في هذا الشأن برأيي! ولكن لم يكن عليك أبداً تبرير وجودك هناك، صدقيني غالباً معالجة هذا الموضوع ليس أمراً سهلاً؛ فقد أوفدت إلى تركيا، لمرافقة زوجك؛ فلم يكن لك خيار في هذه المسألة.

أعتقد أنك كنت تستطيعين البقاء في بلدك حول المدفأة في منزلك الكبير بالريف الإنجليزي، غير أن ذلك لم يكن ليمثل خياراً بالنسبة لامرأة تمتلك هذا القدر الكبير من الفضول مثلك، لكن الأمر كان مختلفاً عندي؛ فقد ذهبت إلى تركيا استجابة لهوس لديّ.

أمّا السؤال الذي يُطرح عليّ دائماً ”لماذا تركيا؟“ فغالباً ما أشعر بالاحراج الشديد ولا أفصح عن السبب الحقيقي لذهابي إلى هناك لأول

مرة، فأحياناً يكون الأسهل عليّ أن أتلعثم ثم أقول: إن لديّ أصدقاء أتراكا، أو بشكل أدق: إن لدي حبيبا تركياً- ويبدو أن هذه هي الإجابة التي يودّ كل الناس سماعها- أو إنني أستمتع بدراسة اللغات النادرة، أو إنني من هواة جمع السجاد، أو إن لدي عملاً في تركيا، ولكن السبب الحقيقي وراء ذهابي إلى تركيا لأول مرة هو رغبتني الجارفة في رؤية مبنى، نعم مبنى، ولكن ليس أي مبنى؛ إنه مبنى من القرن الثالث عشر، أقدم من أي شيء قد يتصور أمريكي وجوده أو رؤيته في بلدنا، فعندما رأيت هذا المبنى لأول مرة معروضاً خلال محاضرة بالجامعة لمادة تمهيدية لدراسة تاريخ الفن الإسلامي زُرعت بذرة في رأسي ظلت تكبر تدريجياً حتى استحوذت على حديقة خيالي بكاملها.

كنت في التاسعة عشرة من عمري فتاة من وسط الغرب الأمريكي من ولاية أوهايو، سافرت بعيداً جداً عن وطني للدراسة في إحدى جامعات فرنسا، كان اليوم الذي حدثت فيه هذه المصادفة في فصل الشتاء بباريس، وكالمعتاد في شتاء باريس كان الجوّ رمادياً وممطراً وقارصاً وكنت جالسة في المدرج الضخم المظلم في يوم من أيام شهوري الأولى هناك، وكنت أشعر بالوحدة قليلاً.

شعرت بالوحدة لأنني لم أكن قد كونت صداقات بعد، وبالإحباط لأن لغتي الفرنسية لم تكن جيدة بما يكفي لكي أفهم كل شيء بشكل تامّ، وباليأس لأنني وجدت نسق المحاضرات الفرنسية غير ودي على الإطلاق؛ فقد بدت تلك القاعات الضخمة رسمية تماماً مقارنة بالفصول الصغيرة المفعمّة بالمشاركة التي تعودت عليها في نظام التعليم الأمريكي.

كنت أفتقد الشدّ والجذب بين الطالب والمدرس، والهيّاج والكياسة اللذين يميزان الفصل الدراسي في الولايات المتحدة، حتى إنني بدأت

أشكّ في مدى ملائمة المسار الدراسي الذي اخترته؛ وذلك لأن كل شيء كنت قد قابلته حتى تلك اللحظة بدا منفصلاً للغاية عن أية حقيقة تربط بين الفنّ والحياة، ولا يتناسب مع اهتماماتي بشكل كبير، كنت قد قضيت شهوراً في محاضرات مادة تاريخ الفنّ في دراسة الحفريات الفرنسية الشهيرة في بلاد ما بين النهرين القديمة، مع ساعات طويلة من المحاضرات المليئة بصور لا تنتهي للفائف التعاويذ والتماثيل الخرقاء التي ترجع إلى حضارات ميتة، كل ذلك بدا غير مثير للانتباه وعديم الفائدة ومملأً.

لكن في هذا اليوم الشتوي الرمادي، في منتصف المادة التمهيدية لتاريخ الفن الإسلامي، ”أطلّ الملك من مركبه“، كما يُقال في الروايات الإغريقية؛ فقد ظهرت على الشاشة فجأة بلا سابق إنذار صورة هزتني وأسقطت عني كل تشاؤمي وكآبتي، كانت صورة لمبنى بدا وكأنه قد بُني بحجارة من الذهب، وفجأة ظهر ما يبدو أنه كالسحر... إنها شمس الأصيل، ومن ورائها ضوء أصفر يتدفق من الشاشة ليضيء تلك القاعة الكئيبة، فشعرت فوراً أنني أقف في أرض فضاء في يوم من أيام الربيع تحت سماء تشبه زرققتها زرقة أحجار القرميد الخزفية التي رأيتها تزين جدران المبنى، كانت على هذه الأحجار الذهبية نقوش عميقة لحيوانات راقصة، ونجوم، ونباتات، وأشجار، وكتابة بحروف متصلة، وطيور يغلفها جميعاً شريط من زخرفة (الأرابيسك) التوريق العربية، يشبه جمالها وتعبيرها السحري تماثيل الأديرة الفرنسية الرومانسية التي أعشقها.

قال الأستاذ: ”...والآن ها نحن نرى مدرسة جوك الدينية في سيواس“ لم أكن قد سمعت من قبل كلمات ”مدرسة (medrese) وجوك (Gök) وسيواس (Sivas)“ ولم يكن لدي أدنى فكرة أين يقع هذا المبنى

بالطبع - ولكن عندما كنت أكتب هذه الكلمات في دفترتي بأفضل ما أمكنني - وأسرعت في تسجيل هذه الكلمات على دفترتي وأحسست أن تلك الكلمات هي مفردات للغة جديدة سأتعلمها.

ما الذي أسرَّ خيالي في هذا المبنى على هذا النحو؟ سأخبرك عن هذا في رسالة لاحقة، ولكن الكثير من رسالاتك أنت تمتلئ بأوصاف لمبان رأيتها؛ ولذلك فإني واثقة من أنك تستطيعين إدراك ما أعنيه بشكل ما، يكفي أن أقول لك: إن الأمر كان يشبه أول مرة تحدّقين فيها في عيني رجل سوف تتزوجينه؛ عرفت تمامًا أن الأمر حقيقي.

نعم، الحجارة لديها القدرة على ترجمة الدفء والحياة، والمعمار يستطيع تجسيد المشاعر الأكثر عمقًا ويجعلها حقيقية وملموسة، نعم لقد تأكدت من هذا في تلك اللحظة.

سارعت إلى المكتبة بعد المحاضرة للبحث عن كتاب يستطيع أن يوضح لي تلك الكلمات ويفسر معناها، عثرت على كتاب فيه خريطة توضح موقع هذا المكان الذي يسمى سيواس:

”سبسطية“: مدينة في وسط تركيا تمامًا، وأصبحت تلك النقطة على الخريطة بمنزلة رأس مؤشر البوصلة عندي، مثل علامة على خريطة الكنز تحدد المكان الذي دفنت فيه جرة الذهب؛ عرفت أنني يجب أن أذهب لرؤية البلد الذي تمكن من إنتاج مبنى كهذا بشكل مباشر.

استمرت الصورة تلازمي وتستحوذ على فكري مثل النبات المتطفل على ساق شجرة، وتظهر بشكل مفاجئ ليل نهار، وبعد فترة قصيرة أدركت أنني بحاجة لأحد أمرين: إما أن أزيل العشب الضار عن تلك الحديقة، وإما أن أمدّها بالسماذ، فقررت أن أسافر إلى تركيا، وأذهب إلى هذا المكان الذي يسمى سيواس لأعثر على هذا المبنى؛ فأنا أستطيع

-كما ترين- أن أجده، فهو ليس كنزاً مدفوناً، إنه هناك! الكل يستطيع رؤيته! أردت أن أقف أمامه، وأن ألمس تلك الأحجار الدافئة، وكنت مقتنعة بأنها سوف تكلمني، ومتأكدة أن لديها القدرة على الاستمرار في تحويل أيامي المظلمة إلى أخرى مشمسة.

وعندما كنت في تركيا أقف أمام هذا المبنى عرفت أنني قد عثرت على جرة الذهب في شوارع سيواس، لم يكن الأمر بحثاً عقيمًا لا فائدة منه؛ فقد عثرت على غنيمة أكبر من المبنى ذاته؛ عثرت على مثال جيد لانعكاس التطلعات الفنية إلى داخل الحياة اليومية: هذا معمار يتكلم وتلك الحجارة تتحدث.

ومنذ ذلك الحين عاهدت نفسي أن أصبح صديقة لهذا البلد الذي يسمى تركيا، أردت أن أعثر على مبانٍ أخرى مثل هذا المبنى، أردت أن أكتشف كيف شُيِّدَ هذا المبنى، وعلى أيدي مَنْ من البشر؟

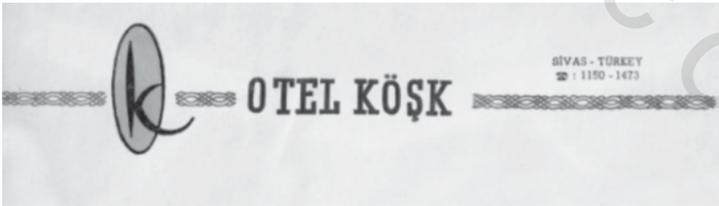
وكلما زادت معرفتي بتركيا أكثر فأكثر من خلال الرحلات السنوية، والبحث، والاستكشاف، وعدد هائل من الحجارة طوال الثلاثين سنة التالية، لم يساورني الشك لحظة واحدة أنني سأبقى مرتبطة إلى الأبد بذلك البلد العظيم الذي يمتلئ بأشخاص لديهم قلوب دافئة تمامًا مثل تلك الحجارة.

صديقتكم

كاثرين براننج



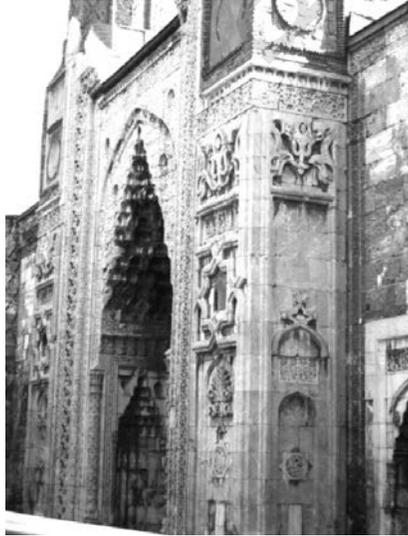
سيواس



دليل السائح وظرف الفندق، سيواس عام ١٩٧٨ م



مدرسة جوك في سيواس عام ١٢٧١م



الرسالة الرابعة

بناء جسر

عزيزتي السيدة ماري،

لقد ذكرت في الرسالة التي كتبتها لـ ”القس كونتي“ التي تصفين فيها المرحلة الأخيرة من رحلتك البرية عبر أوروبا إلى القسطنطينية أنك قضيت ليلتك في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجي، تشتهر هاتان المدينتان بالجسور العثمانية الشهيرة التي أثارت إعجابك مثلما تثير إعجاب الزائرين اليوم:

”مررنا في بقية رحلتنا عبر مروج مصبوغة بالألوان الجميلة على شاطئ بحر مرمره ”بروبونتس قديماً“، وقضينا ليلتنا التالية في سيليفري -كانت قديماً بلدة راقية-، وهي الآن مرفأً بحري جيد جداً، مبنية بشكل منسق ومنظم، وفيها جسر يحتوي على اثنتين وثلاثين قنطرة... ثم قضينا الليلة التالية في بلدة تسمى ”بويوك شكمجي“ أو ”الجسر الكبير“، والليلة التي تليها في ”كوتشوك شكمجي“، أو ”الجسر الصغير“ في نزلٍ مريح جداً، كان في السابق تكيّة للدرائش، وكان أمامها ساحة واسعة تحيط بها حجرات رخامية تتوسطها نافورة رائعة، إنّ المشهد من هذا المكان والحدائق المحيطة به من أروع ما شاهدت، وهو دليل على أن رجال الدين في كل الأديان يعرفون كيف يختارون أماكن خلوتهم.“

قام السلطان سليمان القانوني قبل وفاته بفترة وجيزة عام ١٥٦٦م بتكليف سنان معماري السراي بتشييد جسر ”بيوك جكمجه“ الذي يمر فوق بحر مرمرة بقناطره المميزة المحددة الرأس، وتشييد جسر ”سيلبوري“.

لا شك أن قوات السلطان أحمد الثالث التي شاهدتها في أدريانوبل (*Adrianople*) ”أدرنة“ قد عبرت هذين الجسرين قبل في رحلتها إلى ساحة القتال في النمسا، وهي في طريقها للاشتراك في الحرب ذاتها التي حاول زوجها أن يفاوض لعقد هدنة لها، لم تخفت حدة حلم الأتراك الدائم في مدّ نفوذهم في أوروبا منذ الأيام المجيدة الأولى لبناء هذين الجسرين المقنطرين.

يحدوني الفضول لمعرفة انطباعاتك عن هذين الجسرين؛ لأن الجسور التركية قد لعبت دوراً في حياتي؛ ففي نفس الوقت الذي عثرت فيه على هذه الأحجار المتحدثة في مدرج الجامعة حدث موقف آخر يستحيل أن يكون بمحض الصدفة، كان بمنزلة سهم آخر يشير في خريطة حياتي إلى الطريق المؤدي إلى تركيا.

حينما انتقلت للحياة في باريس وأنا طالبة شابة، كان من الضروري أن أجد عملاً لأدفع نفقات معيشتي، وقد أسعدني الحظ بالعثور على وظيفة في شركة تقدم خدمات الترجمة لشركات الهندسة المدنية الفرنسية الكبرى؛ وهكذا عملت مع فرق من المهندسين الذين يحاولون فك شفرة وثائق فرنسية صعبة وترجمتها إلى الإنجليزية، مثل وثائق الرموز الصناعية، وطلبات العطاءات، ومعايير البناء، والمناقصات، ووثائق التشييد، وما شابه، كان عملاً رتيباً جداً لكنني أحببت فيه الدقة والإتقان والوضوح؛ لهذا أشعر كثيراً أن هذه التجربة قادتني للعمل أمينة مكتبة، عندما بدأت العمل في هذه الشركة كنت فتاة صغيرة بريئة مبتدئة،

فكنت خائفة بعض الشيء؛ لهذا كان أول مشروع ترجمة يُسند إليّ يعتبر خطوة مهمة لأثبت نفسي وقدراتي، وحينما علمت أنني سأعمل على ترجمة مناقصة لتشييد جسر شعرت فجأة بالألفة تجاه المشروع والرغبة الشديدة في تشييد جسور بين فرنسا والدول النامية.

غير أن هذا الجسر لم يكن كأبي جسر، فمن المقرر أن يعبر واحداً من أشهر المجاري المائية في العالم "مضيق البوسفور" في إسطنبول بتركيا؛ إنه جسر جديد سيبني شمال الجسر الأول الذي بُني عام ١٩٧٣م.

بالطبع كنت أعرف جغرافيا المكان جيداً، لكنني في تلك الليلة أحضرت الخريطة ونظرت عن كثب إلى موضع التشييد المحدد، وكانت الصدفة أن موقعه في نفس الأرض ذات الأحجار المتحدثة التي شاهدها في الصف، ولم أنس ذلك مطلقاً.

على مدار الأشهر التالية بذلنا جهداً كبيراً في ترجمة وثائق هذا العطاء، التي كانت تمثل الأوراق التجارية التي ستقدمها إحدى أكبر شركات التشييد الفرنسية لهذا المشروع الدولي الضخم.

لقد هالطني ملايين الدولارات المرصودة لهذا المشروع، علاوة على حجم البناء، وكمية المعادن، وحمولات المحمل، والحسابات المتخصصة، كل هذه الأمور أربكتني، ومع أنني نشأت في بلد كبير معتاد على تشييد مبانٍ ضخمة، فإنني لم أتعامل سابقاً مباشرة مع مشروع بهذا الحجم الهائل.

بعد ساعات من ترجمة معاملات الإجهاد ومعادلات تحميل الحمل كنت أعود إلى منزلي ليلاً وأحضر كتاباً لدراسة صور مضيق البوسفور، وكنت أحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرأ في ذهني حول دوري في هذا المشروع، أسئلة مثل: ماذا سيكون دور "جسري"؟ كيف سيغير

حياة الناس المقيمين على جانبيه؟ هل سأضر بهؤلاء الأشخاص كما تسحق الأبراج الضخمة أشجار الأرجوان على ضفاف البوسفور؟ هل هذا الجسر يحترم التاريخ والبيئة الطبيعية هناك؟ ما مقصد قادة البلد من إتمام هذا المشروع؟ ظللت أنظر إلى صور قديمة وحديثة، وإلى مجموعة رسوم شهيرة رسمها ميلينج تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، وحاولت استيعاب تاريخ المنطقة وسياقها.

الفرق شاسع بين الرسوم الحجرية القديمة التي تعكس صورة المياه الهادئة وقوارب التجديف الخشبية المتكاسلة، والعالم الحديث المليء بالسيارات المسرعة المكتظة بالركاب والشاحنات المزعجة الممتلئة بالبضائع.

ومع ذلك، كلما قرأت أكثر عن تركيا وتاريخها وأحلامها بدأت أفهم أن هذا الجسر ليس مجرد قناة لعبور السيارات والأشخاص، بل إنه بمنزلة ممر لنقل الأفكار والقيم؛ إنه يرمز لتقدم هذا البلد، إنه المسمار الذهبي الذي سيربط الطريق الممتد عبر القارات ليصل آسيا بأوروبا.

وهكذا بدأت أربط أهداف هذا الجسر وحجمه بالأرض التي سيبنى عليها، حينها شعرت فجأة أنني جزء من شيء عظيم إنه ميلاد بلد قوي، وأن مشاركتي الصغيرة سيكون لها أثر في حياة الأشخاص الذين سيعبرون هذا الجسر يوماً، في البلد الذي تستقر فيه أبراجه، وفي عالم الأفكار الذي سيسافر عبره من الشرق إلى الغرب والعكس.

شرعت أقرأ بنهم عن تاريخ هذا الشعب، وخاصة عن الرجل الذي سيحمل الجسر اسمه "السلطان محمد الفاتح"، المجاهد الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م؛ وأدركت أن هذا الجسر قدّر له أن يواصل مسيرة العظمة والتوسع التي بدأها السلطان، كما أن هذا الجسر سيحقق

طموحات رجال عظماء آخرين، مثل سليمان القانوني وأتاتورك فضلاً عن قادة الجمهورية التركية الحديثة.

أدركت أن شعب تركيا ما زال يتحلى بعد مرور مائتين وستين عاماً بنفس روح "الفتاح"، ولأنني نتاج بيئة غرب أمريكا المتوسط؛ تفهمت هذا الطموح وأعجبت به، أردت أن أعرف المزيد عن هؤلاء البناة المتحمسين، وحلمت بعبور الجسر معهم.

يمكنك أن تري يا سيدة ماري، كيف عايشت قصة جسر الفاتح في مرحلة من حياتي؛ شعرت بصلة قرابة مع هذا البلد المتلهف لتحديث نفسه، وهذه عادتي دائماً، فأنا أدمهم في هذا.

تعلقت بهؤلاء الأشخاص الذين سيعبرون يوماً ما "جسري"، وتخيلت شعورهم في تلك اللحظة التي يتمكنون فيها من تحريك رأسهم لرؤية الأفق الشرقي والغربي، علاوة على شريط المياه الزرقاء الحريري أسفلهم.

أثناء عملي مع هذه الوثائق بدأت أفكر أيضاً في مشروع بناء حياتي؛ فمشروع الجسر قد أصبح المحك الذي أختبر عليه الأسئلة التي حيرتني خلال انتقالي من مرحلة الشابة المتلقية إلى الراشدة المنتجة: هل أريد أن أصبح صانعة جسور لربط الثقافات؟ هل أريد أن أساعد الناس على العبور من مكان إلى آخر؟ هل أريد أن أبني بالفعل أشياء كما فعل والدي الذي امتهن البناء؟ هل أريد أن أكون مترجمة لإبداع الآخرين أم أكون أنا المبدعة؟

أفترض أنك طرحت نفس هذه الأسئلة على نفسك يا سيدة ماري عندما شرعت في مهنتك بوصفك كاتبة: ما الذي دفعك لالتقاط القلم في البداية؟ ما الذي شجعك وحثك على التقدم بسرعة في مساعيك الأدبية، بالرغم من القيود الاجتماعية التي كبلتك؟ أيّاً كان الدافع الذي شجعك على ذلك فيبدو أنه بالنسبة لي كان الجسر التركي.

للأسف لم تحصل الشركة الفرنسية التي أُنحِث عنها على عقد بناء جسر الفاتح، لكنها استمرت -وكذلك فعلت- في بناء جسور أخرى، ومستشفيات في إفريقيا، وجامعات في المملكة العربية السعودية، لكن الحقيقة أنني لم أجد أية وثائق بين التي ترجمتها تحمسنني وترضييني أو تمس قلبي مثل وثائق جسر البوسفور.

بعد إتمام جميع وثائق العطاء وإرسالها، كنت متأكدة أنني قدمت أكثر من مجرد ترجمة؛ فقد وجدت المحك الذي سأقيس عليه بقية حياتي، نعم، لقد أردت بناء أشياء، فضلاً عن الشعور بالقوة والإنجاز الناجمين عن ذلك.

نعم، لقد أردت مساعدة الناس على العبور من ضفة إلى أخرى على جسر التفاهم، والأهم من ذلك كله أنني علمت أن تركيا ستشكل جزءاً مهماً في حياتي القادمة.

تحدث الكثيرون منذ ذلك الحين عن جسر الفاتح وما يرمز له بوضوح من عناصر مختلفة للصراع الثنائي العنيف الذي اعتل في قلب كل تركي قروناً بين الشرق والغرب، والقديم والحديث، والديني والديني، والأوروبي والآسيوي، والتراث العثماني والرؤية الأتاتورية، والبسطاء والعلماء، والفقر والثراء، والمدينة والريف.

ما زالت هذه الرموز تشغل الكتاب حتى الآن، وما زال الجسر يكرر نفس السؤال الملح: "في أي جانب تقف؟" إن الكابلات الحديدية المزدوجة التي تعلق هذا الجسر قوية ومرنة معاً، مثلها مثل القضايا الجغرافية، واللغوية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية المتعددة التي تدور الآن في جمهورية تركيا، لكن الجسور في النهاية رمز القوة؛ فالشخص الذي يتحكم في الجسر يتمتع بتفوق استراتيجي، هذا هو الموضع الذي

اختارته إسطنبول لنفسها بمساعدة هذا الجسر؛ لتغدو الحلقة المركزية في السلسلة الأوروبية والآسيوية.

وكما ترين يا سيدة ماري؛ لهذا سألتك عن انطباعاتك عن هذين الجسرين في مدينتي سيليفري وبويوك شكمجى، فقد كنت حينها مثلي ومثل تركيا - وقت بناء هذين الجسرين العثمانيين وجسر الفاتح - على مشارف حياة جديدة؛ لم تعرفي وقتها ماذا يوجد في الجانب الآخر من هذا الجسر ذي الاثنتين والثلاثين قنطرة، أو إلى أين يؤدي الطريق في الجانب الآخر، لكنك عرفت - بمجرد بناء جسر في هذا المكان - أن الجانب الآخر يستحق الوصول إليه، وهذا هو ما يجعل عبور الجسور تجربة مثيرة.

مع تحيات صديقتكم
كاثرين براننج



جسر بويوك شكمجي ذو القناطر التسع عام ١٥٦٧م



جسر سيليفري ذو الاثنتين والثلاثين قنطرة ”وما زالت القناطر كلها واضحة كما كانت في أيام السيدة ماري مونتاجيو“ عام ١٥٦٨م



جسر الفاتح في إسطنبول عام ١٩٨٨م

الرسالة الخامسة عبور الجسور

عزيرتي السيدة ماري،

وهكذا توجهت صوب بلاد الجسور والأحجار المتحدثة في صيف

١٩٧٨م.

لم أسجل بدقة انطباعاتي عن الزيارة الأولى في دفتر رحلاتي؛ ربما لأنني كنت منبهة لدرجة تفوق تصوري، فلم أتمكن من توثيق كل شيء. غير أنني أذكر بوضوح شعوري بالسعادة عند رؤيتي أول مسجد ذي مآذن تشبه قلم الرصاص وأنا في الطائرة فور وصولي إلى إسطنبول "الاسم الحالي لمدينة القسطنطينية التي تعرفينها".

ماذا كان انطباعتك عن هذه المدينة الرائعة يا سيدة ماري؟ لقد وصفت أول مرة ترين فيها إسطنبول قبلي بنحو مائتين وتسعة وخمسين عاماً بالآتي:

”... وصلنا في الليلة التالية إلى القسطنطينية، لكنني لا أستطيع أن أخبركم الكثير عنها بعد؛ لأنني انشغلت تمامًا بتلقي الزيارات... قصرنا يقع في منطقة بير^(١)، وهي ضاحية من ضواحي القسطنطينية تشبه ضاحية ويستمنستر خارج لندن، ويقيم جميع السفراء بالقرب منا.

يطل أحد جوانب منزلنا على المرفأ والمدينة وجناح الحريم في قصر السلطان، وعلى تلال آسيا البعيدة، ولعلها أجمل إطلالة في العالم كله!

ذات مرة قال كاتب فرنسي: ”إن حجم القسطنطينية ضعف حجم باريس...”

بالطبع كان جسر البوسفور الأول من أهم الأشياء التي تركت انطباعاً قوياً في نفسي، ذلك الجسر الذي بدا وحيداً وقتئذ؛ لأن ”جسري“ جسر الفاتح لم يكن قد بُني بعد؛ يا له من مشهد جليل؛ فبموقعه الحيوي وامتداده يكاد يشبه جسر البوابة الذهبية، أو جسر بروكلين في بلدي!

في وقت لاحق اختبرت بنفسي شعور الفخر الذي شعر به الأتراك نحو هذا الجسر؛ ففي زيارة لاحقة لتركيا نزلت عند أسرة صديقة لي في مدينة سوادي على الجانب الآسيوي من الجسر، وذات يوم أخبرتني الأسرة: أنها قد أعدت مفاجأة لي، حينها لم أكن أفهم اللغة التركية جيداً؛ لذا لم أعلم ما هي المفاجأة، لكنني كنت مستعدة لها. ركب جميع الأعمام، والعمات، وبعض الأبناء، وأنا، وصديقتي في سيارة قديمة من نوع ”شيفروليه“ وانطلقنا.

(١) بيوغلو حالياً (المترجم).

كان يوماً شاتياً متجمداً والثلوج تتساقط؛ لهذا سعدت بالدفء المنبعث من تكديس ثمانية أفراد في السيارة.

حينها كانت تركيا تمر بحالة من الفقر والصعوبات الشديدة في شتاء عام ١٩٨٠م، بعد أن فرضت الأحكام العرفية؛ ومن هنا أدركت أن حرق الوقود الشحيح في رحلة كهذه يدل على أنها رحلة مميزة جداً.

فور أن بدأنا الرحلة أخبروني أنهم سيعبرون بي جسر البوسفور، وقالوا: ”نريدك أن تحلقي فوق المضيق كالتائر، وتشاهدي العبارات من أعلى، لتجربي إحساس العبور من قارة إلى أخرى!“

كانوا في غاية الفخر وهم يمنحون ضيقتهم هذه التجربة، وقد خانتني الكلمات حينها، ولا أحد فيهم يعرف علاقتي الشخصية بمضيق البوسفور والجسور.

وإذا ظننت يا سيده ماري أنّ الإطالة من منزلك كانت ”أجمل إطالة في العالم كله“، فيجدد بك مشاهدة هذه التلال الآسيوية من أعلى الجسر على ارتفاع خمسة ومائة قدم في الهواء؛ فهكذا عبرت أول جسر لي في تركيا في تلك السيارة المليئة بالأتراك المفعمين بالحماس، خطوت خطوة رمزية مهمة لما بقي من حياتي؛ إذ شعرت بإثارة الانتماء لشيء أكبر مني.. شيء يجذبني بخيوط سحرية.

بعد عبوري الجسر لم يعد شيء كسابق عهده مطلقاً؛ فقد بدأت السير من أحد جوانب الجسر بوصفي زائرة سائحة، ووصلت إلى الجانب الآخر وأنا أكثر من ذلك.

حينما سافرت إلى فرنسا في البداية عدت ذات ليلة في أواخر شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر إلى منزلي سيراً على الأقدام تحت أضواء الليل،

وفي تلك الليلة الخريفية الباريسية غرس فيّ ضوء الغسق المترامي على محطة قطار ”مترو رو دو باك“ شعوراً لن أنساه ما حييت، فجأة رأيت كل شيء بوضوح، وشعرت أنني أتتمي إلى هذا المكان، ملأني شعور بأنني مقبولة، وأني أستطيع العثور على مكاني، وأستطيع النمو في هذا المكان، وأني في هذه الرحلة سأكون وسط رفاق، وأني سألتقى دعوة للمشاركة في الحياة هناك عسى أن أقدم لهم شيئاً ذا بال.

شعرت أن المكث هناك والبحث عن سعادتي من حقي، وكما أحببت باريس أحببتي وبادلتي الشعور، وهذا هو نفس الشعور المؤكد الذي ملأني عندما عبرت جسر البوسفور.

تركيا مثلي، تتفقد مسارها مع مرور السنين، وتنمو، وتتسع؛ لقد غدت تركيا بمنزلة جسر لي، أو مكان آمن فوق المياه الهادئة والمضطربة؛ إنها تذكرنني باستمرار أنني أعبّر لأذهب إلى مكان ما، وأني دائماً بين ضفتين: الضفة التي أنا عليها، والأخرى التي أستطيع الوصول إليها أو بلوغها.

يعلمني عبور الجسور أن أكون مستعدة ومتسلحة بالثقافة لعبور طريقي، سواءً هنا أو في وطني، وأن أبحث عن شخصيتي في تواريخ الآخرين المتباينة؛ لقد تركت تركيا بصمتها على حياتي كما تركت بصمتي على حياتها، وأنا أوصل السفر وعبور الجسور لأفهم هذا الرابط العاطفي الدائم الذي يربط شاطئي بشاطئها.

حتى يومنا هذا أجد متعة وإثارة في عبور أي جسر، وما أكثر الجسور في تركيا، لا يقتصر الأمر على الجسرين الواقعين خارج ”أدرنه“ اللذين عبرتهما يا سيدة ماري، أو الجسرين اللذين يعبران مضيق البوسفور، بل ثمة مئات الجسور الأخرى التي بُنيت على مدار آلاف السنين، على يد الرومان أو البيزنطيين أو السلاجقة أو العثمانيين، وهي إنما بُنيت لتربط طرق الاتصال والثقافة والتجارة المتفرقة.

وأنا أحرص في رحلاتي أن أعثر على الجسور وأسير فوقها، وحين أعبرها ببطء شديد أشعر أنني أستمد من صخورها القوة، وأفكر في كل الأشخاص المشهورين والمجهولين، البسطاء والمهمين، الذين خطوا نفس خطواتي؛ فالحيوانات والفلاحون والمسافرون والمحاربون والملوك والسلاطين والدراويش كلهم عبروا قبلي هذه الجسور.

من بين الجسور اللافتة التي عبرتها: ”الجسر المقوس“ في ضواحي مدينة سيواس، حيث تمرح كلاب الكنجال التركية على ضفتيه، وجسر ”أك“ الذي يقع في وسط مدينة أنقرة النشطة، وهو يعود إلى القرن الثالث عشر، وجسر ”خان كيسك كبور“ الطويل ذو القناطر الثلاث عشرة، و”جسر مالابادي“ الكبير، وجسر ”البيزنطيين“ الذي يعود إلى القرن السادس ويقع خارج أسوار مدينة ديار بكر ويمكن رؤيته من الفضاء، والجسر المفضل لدي ”الجسر السلجوقي“ الصغير الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات، فهذا الجسر يلهمني بجماله وموقعه وبساطته والرسالة التي يحملها؛ فقد تمكن ثلاثة إخوة يتنافسون على العرش السلجوقي أن يضعوا خلافاتهم جانباً لبنوا هذه التحفة الفنية الصغيرة التي تربط محور التجارة الجديد من الشمال إلى الجنوب في مملكتهم.

دعونا نحن أيضاً -حكماً ومواطنين وأممًا- نضع خلافاتنا جانباً لنبني بعض الجسور، ونعبرها معاً خطوة تلو الأخرى.

صديقتكم

كاثرين براننج



جسر "هادريان" الذي يعبر نهر يشيليرماك في محافظة توقات عام ١٢٥٠م



جسر البوسفور، إسطنبول عام ١٩٧٣م